:الشعراء الصعاليك ج٢

مادة نصوص من الأدب العربي قبل الإسلام الصف الأول الفصل الثاني قسم اللغة العربية

ا.م.د.اياد سالم ابراهيم

شعر الصعاليك

الصعلوك في اللغة، الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات، وقطع الطرق، ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات:

١- مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الازدي، وقيس ابن الحدادية، وأبي الصمحان القيني.

٢- مجموعة من أبناء السود الحبشيات ممن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم العار ولادتهم مثل السليك بن السلكة، وتابط شراً، والشنفرى،وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم، فسموا وأضرابهم باسم أغربة العرب.

٣- مجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء، ولا من أبناء الأماء السود، غير أنها أحترفت الصعلكة احترافا، وحينئذٍ قد تكون أفراداً مثل عُروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف. موضوعات شعر الصعاليك:

١- **أحاديث المغامرات:** مادامت حياة صعاليك العرب قد اتخذت شعارها "الغزو والإغارة ، والسلب والنهب" فليس غريباً أن يكون اكبر ما يعني به شعراؤهم أحاديث مغامراتهم، لأن هذه المغامرات هي "الحرفة" التي قامت عليها حياتهم والأسلوب الذي انتهجوه فيها لتحقيق غاياتهم. من قول الشاعر:

دَعْيني وقولي بعدُ ما شئتِ إنني سَيغدّي بنعشي مرةً فأَغيَّبُ
خرجنا فَلَمْ نَعهد وَقلَّت وصَاتنا ثمانية ما بعدهن متَعبتب
سراحينُ فتيانٌ كأن وجوههم مصابيحُ أو لَون من الماء فدهبُ

في هذه الأبيات يخاطب امرأته ويعلمها إنه خارج لملاقاة قوم آخرين، وأنه غير مبال بحياته ما دام يعلم أن الموت لا بد منه.

٢- **شعر المراقب:** وفيه يتحدثون عن تربصهم بأعدائهم، وترصدهم لضحاياهم وارتقابهم الفرصة الملائمة لمهاجمتهم فوق المرتفعات العالية التي يشرقون منها على

الطريق بحيث يرون الناس وهم لا يرونهم والتي كانوا يسمونها "المراقب" وفي هذا المعنى قول الشاعر.

وَمَرْقبةٍ يَحارُ الطرف فيها تزلُ الطير مشرفة القذالِ
أقمتُ برَيدها يوماً طويلا ولم أشرف بها مثل الخيالِ
وَلمْ يشخص بها شرفي ولكن وَنَوْت تَحدُرَ الزلالِ

٣- **التوعد والتهديد:** كما تحدث الصعاليك عن الترصد والتربص تحدثوا عن التوعد والتهديد، وأكثرهم توعداً الشنفري في توعده لبنى سلامان أولئك الذين أشربت نفسه بغضهم، والذين كانوا السبب لتصعلكه، إذ عاهد نفسه ليختلف منهم مئة بما اعتبروه، وهو يتوعدهم في شعره، إذ يقول:

فلا تزُرْني حتفي أو تلاقني أمشّ بدَهْو أو عدَافٍ بَنَورا
أمشي باطراف الحماط، وتارةً ينفّضُ رجلي يسبطا فعصنصَرا
أبغي بني صَعْبٍ بن مُرّبدارهم وسَوف ألاقيهم إن اللهُ أخرا

٤- **وصف الاسلحة:** يتحدث الصعاليك عن أسلحتهم ويعدونها القوة الثالثة التي يعتمدون عليها في مغامراتهم الى جانب قوة قلوبهم، وقوة أرجلهم، وهذه القوة يجمعها تابط شراً بقوله:

فلا يبعدنّ الشفرى وسلاحه ألـ حديدُ وَشدٌ خطوه متواترُ

أما صخر الهذلي فحريصُ على أن يرسم لسيفه صورة دقيقة، فهوة سيف ماضٍ من حديد أصيل وهو سيفُ معدوم النظير، لا تقوى أشد العظام على ضربته، وأنما تتكسر قطعاً:

وصَارم أخلصتْ خشيبتهُ أبيض فهو في متنهِ رُبُدُ
فَلَوْتُ عنه سُيوف أرْ بح إذ باء بكفي ولم أكد أجدَ
فهو حُسَامُ تُترُّ ضربتُهُ ساقَ المذكيّ فعظمُها يصدُ

٥- **أحاديث عن الرفاق:** وكما يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم التي يستخدمونها في مغامراتهم فقد تحدثوا عن رفاقهم الذين يرافقونهم فيها، ودور كل واحد منهم. وما أكثر ما نجد في شعرهم ألفاظ الرجل، والمنسر، والسربة، والأصحاب، والصحب، والقوم وأمثال هذه الألفاظ التي تدل على الجماعة.

ففي مثل هذا المجال يتحدث عروة كثيراً عن أصحابه، لكنه حديث الزعيم أو القائد لا حديث الرفيق أو الزميل، فهو يدعوهم إلى الخروج معه للغزو والغارة وفي مثل هذه المعاني يقول:

أقيموا بني أمي صدور مطيكم فإن مطايا القوم خَير من الهزلِ

وأنكم لن تبلغوا كل همتي ولا أربتي حتى تروا منبت الأثل

الظواهر الفنية في شعر الصعاليك

إن الدارس لشعر الصعاليك يجده يمثل حياة فئة من الشعراء لهم فلسفة خاصة تخالف ما عرفنا من شعر شعراء الجاهلية.. واهم سمات شعر الصعاليك هي:

١- **إنه شعر مقطوعات** : وهذا لا يعني انعدام القصيدة عند الصعاليك وإنما ذيوع المقطوعة أكثر من ذيوع القصيدة ، لأن حياة الصعاليك كلها مشقة وعناء ، إذ لم تسمح الظروف للشاعر المتصعلك أن يفرغ لفنه كما يفرغ الشاعر الجاهلي كزهير بن أبي سلمى مثلاً إذ كان يعيد النظر في قصيدته حولاً كاملاً... وجاءت قصائدهم الطويلة أصداءُ لبعض فترات لاستراحة في حياة الصعاليك...

٢- **الوحدة الموضوعية** : وتتجلى الوحدة الموضوعية في مقطوعات شعر الصعاليك وأكثر قصائدهم وهي ظاهرة لم تعرفها قصائد الشعر الجاهلي تلك القصائد التي تبدأ بمقدمة طللية، ثم تنقل من الموضوع إلى آخر حتى تصل نهايتها...

٣- **التخلص من المقدمات الطللية:** لقد استعاض شعراء الصعاليك عنها بمذهب آخر جعلوا محوره المرأة المحبة الحريصة على فارسها التي تدعوه دائماً إلى المحافظة على حياته إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هي، وليس من شك انها براعة لطيفة من شعراء الصعاليك أن يضعوا في مستهل قصائدهم صورة الأنثى الضعيفة التي يظهر فارسها إلى جوارها بطلاً قوياً مستهيناً بالحياة .

٤- **عدم الحرص على التصريع** : هذه السمة توشك أن تكون مطردة في كل شعر الصعاليك سواءُ ما كان منه داخل دائرة الصعلكة، وما كان خارجها، وسواءُ ما كان مقطوعات أو قصائد.. أما ورود التصريع في بعض المقطوعات الشعرية أو القصائد فهو نادر. ويعلل هذا التصريح النادر بأنه جاء عفواً ومن دون قصد..

٥- **التحلل من الشخصية القبلية:** وهذه السمة ليست غريبة على شعر الصعاليك، لأنها فقدت القبلية ذلك التوافق الاجتماعي بين الصعاليك وقبائلهم مما ترتب عليه فقدان الإحساس بالعصبية القبلية في نفوسهم. ومن الطبيعي إلا تظهر شخصية القبيلة عند شاعر فقد إحساسه بالعصبية القبيلة، لكن الشاعر الصعلوك جعل شخصيته في جماعته، لأنهم يؤمنون بمذهب واحد ويدينون بعصبية مذهبية واحدة وهي التصعلك..

إن أساس حركة الصعلكة اعتداد بالشخصية الفردية، واعتزاز بمقدرة الفرد على الوقوف في وجه المجتمع.

٦- **القصصية:** شعر الصعاليك في اغلبه شعر قصصي يسجل فيه الشاعر الصعلوك كل ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة طيبة للفن القصصي، فحوادث مغامراتهم الجريئة التي كانوا يقومون بها فرادي وجماعات وما كان يدور فيها من صراعٍ دام مرير، وأخبار فرارهم وعدوهم وتشردهم في إرجاء الصحراء بين وحشها وأشباحها، وتربصهم فوق المراقب في انتظار ضحاياهم كل هذا وغيره من مظاهر حياتهم مادة صالحة للفن القصصي، وقد استغل الشعراء الصعاليك هذه المادة في شعرهم استغلالاً قصصياً رائعاً جمع في صورة بسيطة عناصر الفن القصصي الأساسية من الإثارة والتشويق، وتسلسل الحوادث حتى تصل إلى غايتها الطبيعية المحتومة.

٧- **الواقعية:** أول مظاهر الواقعية اتخاذهم الحياة بما فيها من خير وشر مادة لموضوعاتهم، وبعدهم عن الإمعان في الخيال إمعاناً ينقلهم من عالم الواقع إلى عالم الأوهام بسحبه العالية وأبراجه العالية.

فقد صور الصعاليك في شعرهم البيئة البدوية التي يعيشون فيها بكل مظاهر الصحراء القاسية بشعابها وجمالها وأغوارها وصخورها ومياهها وحرها وبردها ولياليها المظلمة الرهيبة وحيوانها الشارد في أفاقها، ووحشها الرابض في إرجائها، كما صوروا الطبيعة كما شاهدوها: الفجر، غروب الشمس، البرق والرعد، السحاب المطر، صورة الحياة الواقعية التي يحبونها بكل ما فيها من واقع خير، وواقع شر.

٨- **السرعة الفنية:** إذا كان شعر الصعاليك صورة صادقة لحياتهم، كانت النتيجة لهذا أن اتسم شعرهم بالسرعة الفنية، فالعمل الفني عند الصعاليك أشبه الأشياء بشوط من أشواط عدوهم يندفعون ولا يتوقفون حتى يصلوا إلى غايتهم. وليس من الغريب أن تكون السرعة الفنية التي وسمت شعر الصعاليك صدى نفسياً لتلك السرعة التي اعتمدت عليها حياتهم منبعثاً من أعماق اللاشعور.

ومن مظاهر هذه السرعة الفنية انتشار المقطعات والقصائد القصيرة في أشعارهم وتخلصهم من المقدمات الغزلية ومن التصريع ، ومن مظاهر ترجع إلى الشكل العام أو البناء الخارجي للعمل الفني..

٩- **الخصائص اللغوية:**

إن الشعراء الصعاليك مهما بلغ الأمر من الخروج على تقاليد مجتمعهم الأدبي من ناحية موضوعات شعرهم، أو معانيه، أو خصائصه الفنية، فليسوا بادرين على الخروج عليه

من ناحية لغتهم، لان اللغة هي العامل المشترك بينهم وبين أناس مجتمعهم، والوسيلة الوحيدة للتفاهم بينهم وبين أفراده، ومع ذلك لا بد أن نلاحظ أمرين:

أ- إن لغة الشعراء الصعاليك أقرب إلى فطرة اللغة العربية، واصدق تمثيلاً لها، إذا هي صادرة من منابعها الأولى قبل أن تؤثر فيها التيارات الاجتماعية وغير الاجتماعية التي تؤثر في اللغات.

ب- كثرة الغريب في شعرهم حتى ليشعر القارئ لشعرهم أنه بحاجة ماسة إلى الرجوع إلى المعاجم الطويلة لاستخراج معاني تلك الألفاظ الشعرية. هذه هي أَهم سمات شعر الصعاليك في الجاهلية بكل شيء حياتهم، معيشتهم، حتى شعرهم الذي خالف الشعراء الجاهليين بكثير من سماته.

أما أشهر شعراء الصعاليك، فهم:

١- **الشنفري (ت٥١٠م):** هو الأواس بين الحجر من الأزد شاعر من أهل اليمن، معدود في العدائين الذين لا تلحقهم الخيل، ومنهم السليك بن السلكة، وعمرو ابن براقة، وأسيد بن جابر، وتأبط شراً. ويقال: أن الشنفري حلف ليقتلنَ مئة رجل من بني سلامان فقتل (٩٩) ما احتالوا عليه وامسكه رجل منهم عدّاء هو أسيد بن جابر ثم قتله، ثم مربه رجل منهم فركل جمجمته فدخلت شظية في رجله فمات فتمت القتلى مئة. وللشنفرى إشعار في الفخر والحماسة، وأشهرها لاميته المعروفة بلامية العرب، وفيها يقول:

أقيموا بني أمُي صدورُ مطَّيكم فإني إلى قومٍ سواكم لأَمْيلُ